

الاسلام وعمرية الفكر

لأستاذ عبد الفتاح إمام

الساطع يعزه ، ويسنده ويقويه ، ويلجأ الى العقول فيحركها للتبصر ، والتأمل والتدبر ، ويحررها من الاغلال والقيود ، حتى تتشرب اصوله وقوانينه — عن عقيدة ثابتة ، وبنية واضحة ..

والاسلام يكره لاتباعه التقليد والتقييد ، ويأبى لاحد من ابنائه أن يلغى عقله ، وقد وهبه الله تعالى له ، وميزه به عن سائر المخلوقات ، ولا يرضى أن يقنع احد بالتلقين ويأخذ دينه دهانا ظاهرا ، وغلاها باهرا ، من غير أن يؤسس ما أخذه على العلم واليقين حتى يثبت أمام عواصف الشبهات ، وباطيل الشكوك وتيارات المعارضات ..

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « يكن أحدكم امعة ، يقول ان احسن الناس احسنت فالرسول وهو المعلم الاول — لا يرضى لاتباعه أن يكونوا امعات — يتبعون غيرهم ، ولا رأى لهم كالذين فقدوا عقولهم .. »

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشير بالعقل ، وتعطيه العناية الكاملة ، وتجعله الرائد والقائد للانسانية ، حيث كان العقل هو الدعام للاسلام ، قام عليه ، وتمشى في تشريعاته مع التطور الفكرى ، ولا زال الاسلام يعلى شأن العقل ، ويحذر على اعماله ، حتى بلغت الانسانية ما بلغت — النضج الفكرى ..

جاء في سورة النحل قول الله سبحانه « واللّه اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون وفي قوله سبحانه : « ان السمع والبصر والفؤاد :

جاء الاسلام لينقذ البشرية من وهديتها ، ويقيها من عثرتها ، ويوقظ العقول من غفوتها .

لهذا كان من مبادئه — أن يطلق الافكار من عقاليها ، وأن يفسح لها المجال — لتخلق في سماء البحث ، فتعالج مشاكل الحياة ، وتواجه ما تقتضيه فطرة الوجود ، وتهىء ما يسوجبه الكمال الانسانى . انطلق الفكر الاسلامى في ميادين البحث ، في فجر الاسلام ، وبدأ علماءه يبحثون في قواعد هذا الدين ، واصوله ، وفروعه ، وهذا امر طبيعى لدين جديد نشأ بين قوم لا عهد لهم به ..

ولما استقرت الاوضاع ، وانتشرت الدعوة في جميع الاصقاع ، وعمت الشرق والغرب ، أخذت الحركة الفكرية تتجه الى جميع العلوم والمعارف ، الدينية ، والعقلية ، والطبيعية ، ونشطت هذه الحركة حتى شملت البحث في جميع ما انتجته العقول في العهود التى سبقت الاسلام ، وقد وجد المفكرون في رحابة هذا الدين ، وسعة افقه ، ما دفعهم الى التفكير في كل ما حولهم من الكائنات ، بل وجدوا القرآن الكريم يحثهم ويشجعهم على اعمال الفكر ، والتزود من المعارف ، اذ يقول الله سبحانه : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » ويقول جل شأنه : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .. »

فالاسلام يخاطب العقول بالحجة والاقناع ، لا بالسيف والحراب ، يدعو الى الامر — ومعه البرهان

الفكر الى آثار قدرة الله في خلقه ، وكلها تحتاج الى التأمل والتفكير والبحث ، ولو شئنا ان نتبّع هذه التوجيهات لطال بنا المجال ..

ولقد استجاب علماء الاسلام في العصور الخوالي لدعوة القرآن الكريم ، وللرسول العظيم ، الى التفكير والبحث في سائر العلوم المادية والروحية ، دنيوية او دنيوية ، ونهضوا نهضة شاملة — كان لها اثرها الايجابي في تدوين العلوم والفنون بعقولهم الجبارة ، وفطرتهم العربية النقية ، غالف ابن سينا كتابه — القانون — في علم الطب الذي كان مرجعا ، ونبراسا لعلماء الطب ، اضاء لهم السبيل ، فساروا على نهجه ، ونهلوا من اصوله وقواعده ، حتى شهدوا له بالنبوغ والسبق في هذا الفن ، وحسبنا ان جامعات ايطاليا وفرنسا كانت تعتمد عليه في دراسة الطب حتى القرن التاسع عشر الميلادي ..

واطلقوا لعقولهم العنان في ميادين اخرى ، غالفوا في الجبر والهندسة ، والفلك ، وعلماء الاسلام هم اول من اخترع آلات الرصد ، وهم كذلك اول من قال ان الارض كروية مستديرة ، كما قرروا ان الارض تدور حول محورها ..

وقد سجل لهم التاريخ انتاجهم وبحوثهم في الكيمياء ، وعالم الحيوان والنبات ، بما يشهد لهم بحق انهم الاعلام الذين لا يشق لهم غبار ، ولا يجاريهم احد في سعة التفكير ، وقوة البحث — ورجاحة العقل ..

وان تشجيع امراء المسلمين للعلماء ماديا وادبيا — لاعظم برهان على عنايتهم بتحرير الفكر ، وانطلاقه في ميادين العلم الفسيحة ، مما كان له اعظم الاثر في النهضة العلمية التي شاد بها التاريخ ، وشهد بفضلها العالم ، في الحاضر والغابر ، حتى مرت عصور سماها التاريخ العصور الذهبية ..

وحسبنا ما قام به خلفاء المسلمين آنذاك من اغداق الخيرات ، واجزال الاعطيات والمكافآت ، لكل باحث وعالم ، ولو كان من غير المسلمين ، اذ كان المطلوب التوسع في المعرفة ، والتبحر في ميادين البحث والتدوين ..

واذن فالاسلام يقدّر العلم ، ويعطيه الاولوية والاسبقية ، لانه دين العلم ، ودين الانسانية التي لا يتم كمالها ورقمها الا بالعلم ..

ولئك كان عنه مسؤولا » — تهديد لمن اهمل استعمال هذه الآلات ، وتوجيه للانتفاع بها في الشؤون الدينية والدنيوية ، وما دام المرء مسؤولا عنها — فلا بد ان يستثمرها ، وينتج بها من آيات الله الكونية ، ما يدل على عظيم قدرته ، وبديع حكمته ..

وفي هذه الآية كذلك تنبيه للانسان ، ولفت نظره الى هذه الحراس (السمع والبصر والفؤاد) التي جعلها الله تعالى آلات لازالة الجهل ، واجتلاب العلم ، يستدل بها على ما يصلح امر دينه ودنياه ، ويتبصر بها عجائب مخلوقاته ، وغرائب مصنوعاته ، وكذلك يعقل ويفهم معاني الاشياء التي خلقها له الله سبحانه — حيث قال جل شأنه : « سخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا » فهذه الحواس آلات للبحث في سبيل التسخير ، وطريق الانتفاع بهذا الكون ..

وكما اشداد الاسلام بالعقل ، نعى بالعيب والازدراء المهانة على من اهمل عقله ، وصوره في اتبع الصور ابشعها ، يقول الله تعالى في سورة البقرة : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، سم بكم عى فهم لا يعقلون » ويقول سبحانه في سورة الانفال : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .. »

ولقد فتّح الاسلام العقول المغلقة ، وكشف لاطفية عن الازدهان المغلفة ، بما تضمنته الآيات لقراءة ، من براهين وادلة تحتاج الى النظر الاستبصار ، وتسوق العقول الى التأمل والبحث ، وتطلب التدبر للكشف عن آيات الله الكونية ، وما دعتة القدرة الالهية ، من ذلك قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه حق » وقوله جلّت قدرته في معرض الدلالة على حدائيقه سبحانه — في سورة ابراهيم : « الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج من الثمرات رزقا لكم » وجاء في سورة الفاشية : « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت » وولفت الفكر الى خلق الانسان فيقول : فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »

هذه نماذج لما جاء في القرآن الكريم من توجيه

وكذلك لا يلتفت الى اختلاف الديانات ، او الجنس او اللغات ، حيث كانت الحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها التقطها ..

والاسلام يعطى العلم مكانته من التقدير والاحترام ، ويعامل اهل العلم معاملة من يعرف للعلم حقه من التبجيل والتعظيم ، ولهذا اثمرت جهود العلماء — حيث وجدوا الرعاية والعناية من الرؤساء ، فانتجوا في كل علم ، ودونوا في كل فن ، وتركوا للأجيال من بعدهم تراثا خالدا ، وثروة علمية وفنية ، انتفعت بها البشرية كلها جيلا بعد جيل ، ولا تزال هذه الثروة يعتز بها المسلمون ، ولا يجحد فضلها الا الجاهلون ..

وما اروع ما يجد المتأمل من رحابة هذا الدين ، وانساحه المجال للعقل ، واطلاق عنائه ، فقد أعطاه الحرية الكاملة للبحث في كل ميدان ، وما حجر عليه النظر في اى ناحية ، بل ان الدين يدفع العقل ويشجعه على التزود من البحث ليحقق للانسانية ما تصبو اليه من رفاهة وعزة ، وطهر وكمال ..

ولما كان الاسلام دين البشرية ، كان صالحا للسير مع تطوراتها ، والتمشى مع حضارتها ، على اختلاف الامكنة والازمنة ، فهو لا ينفر من الحضارة ، ولا ينأى عنها ، انما يشذبا ويهذبها ، وينقيها مما يشينها ، ويصفيها مما يعيبها ، حتى تظهر مجلوة في اعلى قيمها ، وابهى صورها ، اذ كان ديسن السمو والرفعة والكمال ..

ولا شك ان الحضارات وليده العلوم ، وثمرات

الجهود الفكرية ، ونتيجة التحركات العقلية ، فجاءت تشريعاته تلائم كل عصر ، وتنظم الحياة الفردية والجماعية ، سمحة — سهلة — لا تعقيد فيها ، ولا جمود في مبادئها وتعاليمها ، وهذه عوامل اتاحت للسابقين الفرصة في ان ينتزعوا الزعامة والقيادة في كل مرافق الحياة ..

وان كان نشاط المسلمين قد فتر ، وعزائمهم قد خارت ، واصابهم ما اصاب غيرهم من الهم ، فذلك ما اقتضته الحكمة الالهية ، فان دوام الحال من المحال ، والايام دول ، والدول يعترئها الضعف والاضمحلال ، والتأخر والانحلال ، ثم لا تلبث ان تنهض فتكون اقوى عزما ، واعظم شأنا ، واعز جاها وسلطانا — سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

وان الاسلام ينادى عقلاء الامة ومفكريها : ان ينهضوا بالدولة الاسلامية ، وان يهبوا لبناء حضارة جديدة ، تقوم على العلم الصحيح ، والمثل العليا ، والاخلاق النبيلة ، والآداب السامية ، حتى يصلوا عز الحاضر ، بمجد الغابر ، ويجددوا من الامجاد والمفاخر ، ما كان موروثا عن اسلافهم ، واطاحت به عواصف الخمول ، في عصور التأخر والانحطاط ..

وانا لنرى بوادر الخير لاحت في افق الشعوب الاسلامية ودفعتهم الغيرة على مقدساتهم ومقوماتهم — الى ان ينهلوا من العلوم والمعارف ، ونشطت عقولهم في هذا العصر نشاطا يبشر بمستقبل زاهر ، ملئ بالاماني الباسمة ، والامال المشرقة ، والله الموفق والمستعان .